نص "النهاية" لأثير الغزي ما بين الومضة القصصية والقصة القصيرة جدا

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

سأتناول في هذه الدراسة نص "النهاية" الذي نشره الكاتب العراقي أثير الغزي في مجموعة سنا الومضة القصصية من زاوية كونه ومضة قصصية أم قصة قصيرة جدا، وسأبدأ بتناول النص في حد ذاته لتبيُّ جمالياته الخاصة، ثم سأنتقل بعد ذلك لتناول هويَّته التجنيسية داخل الفن القصصي. وها هو النص:

اجتزأ حياتَهُ بتوصيفٍ دقيقٍ لخارطةِ الوطن، عشقَ ماءهُ... ترابَه... كَبَحَ أُمنيّاتَهُ، ماتَ جوعاً.

يبدأ النص بالفعل "اجتزأ" الذي يدل على الابتسار والإنقاص والتقليص والاختزال، وهي دلالات سنبصر تجلياتها في نهاية النص، لأنها تقترن بتضييق مفهوم الحياة

واختزالها في شيء واحد، الأمر الذي يؤدي بالشخصية – بسبب هذا الاختزال – إلى موت أقرب للانتحار.

الاجتزاء هنا مرتبط بالحياة التي يتم اختزالها. وعندما نتأمل طبيعة هذا الاختزال نجد أنه يرتبط بشيئين: أولا، بـ "توصيف دقيق" تقوم به الشخصية، وما يفترضه هذا التوصيف من رؤية لها ملابساتها الخاصة ولها ما لها وعليها ما عليها؛ ثانيا، يتعلق هذا التوصيف بـ "خارطة الوطن". وكما نعلم، الخارطة كيان افتراضي أو مثالي يمثل حدودا جغرافية وعرقية في المقام الأول، ثم يمثل ظلال معان إضافية تختلف من شخص لآخر في إطار هذه الخارطة.

ويبدو أن هناك صراعا أو تنافرا بين الواقع والمثال، فالشخصية عشقت تراب الوطن وماءه عشقا لا يوصف. والتركيز على الماء والتراب هنا ينقلنا إلى دلالتيهما: فالتراب والماء قرينان كي يمكن للحياة ومظاهرها أن ينبتا ويتجسدا على الأرض، فلا تراب بلا ماء، ولا يستطيع الماء أن يفعل شيئا إذا لم يجد تربة مواتية ليخلق الحياة من خلالها.

وعندما ننتقل إلى الجملة التالية في النص – "كبح أمنياته" [وأمنياته بكسر التاء وليست بفتحها لأنها جمع مؤنث سالم] – نجد أن عشق الشخصية للوطن يكاد يكون حبا من طرف واحد، وأن مفهوم العشق ذاته في حاجة إلى مراجعة، فالمعشوق من المفترض أنه لا يكبح أمنيات عاشقه، ومن المفترض أن الوطن لا يقضي على أبنائه أو يجردهم من أمنياتهم وأحلامهم.

ونظرا لأن هذا العشق من طرف واحد، نجد أن العاشق/الشخصية كوّن لديه فكرة خاطئة عن الوطن، أو على الأقل فكرة لا تتناسب مع واقع هذا الوطن الذي يأخذ فقط، دون أن يعطي لأبنائه شيئا. فبالرغم من أن الشخصية هي الفاعل هنا في الفعل "كبح"، تمكّننا القراءة المتعمقة في النص من أن نرى الوطن ذاته قائما بفعل الكبح، وهي فاعلية اعتبارية على كل حال، فالوطن لا يكبح، وإنما القائمون على إدارة شئونه هم من يقومون بكبح الأمنيات، وكأنهم قاموا بخصخصة الخارطة التي عشقتها الشخصية في النص هنا:

أي جعلوها حكرا عليهم وهم فقط الذين يحظون بمكتسباته أو موارده، وعلى الباقين أن يكتفوا بالتضحية والعشق!

وتأتي نهاية النص لتضع علامة استفهام حول ما سبقها: حول الاجتزاء والعشق والكبح. وكل الأطراف يلعبون دورا كبيرا في هذه النهاية المفجعة، فالشخصية أخطأت عندما افترضت وجود تباين أو تعارض بين عشقها للوطن وتحقيقها لأمنياتها، وتحول هذا الخطأ إلى التصرف المترتب على هذا الافتراض: ألا وهو قيام هذه الشخصية باختزال الوطن في الخارطة الافتراضية والتغاضي عن أي شيء آخر، سواء أكان هذا الشيء شخصيا مثل تحقيق الأمنيات الشخصية أم عاما مثل ترك القائمين عليه يسخّرونه لخدمة مصالحهم. والقائمون على إدارة شئون الوطن أيضا أخطأوا عندما خلطوا ما بين الإدارة المحايدة التي تبتغي تحمل المسئولية والعمل على توفير الاحتياجات الأساسية للمواطنين، أو على الأقل توفير البيئة المناسبة لهؤلاء المواطنين ليحصلوا على احتياجاتهم الرئيسية بعمل أيديهم.

المدى الزمني لهذه لهذا النص يجعلنا نعيد النظر فيه على مستوى الانتماء النوعي أو التجنيسي، فالزمن هنا طويل إلى حد ما وقد يستغرق شهورا أو سنوات ما بين الاجتزاء والموت جوعا. فنص الومضة ينتهي فعليا عند "كبح أمنياته" تحقيقا لشرط لحظية زمن الحدث: أي أن يستغرق الحدث لحظة أو لحظات معدودة، الأمر الذي يجعلنا ننظر للنص على أنه قصة قصيرة جدا بالرغم من محدودية عدد كلماته: فعلى مستوى عدد الكلمات، يلتزم النص بالمعيار الكمي التجريبي الذي تحدده مجموعة سنا الومضة القصصية المنشورة فيها هذه الومضة. ولكن على مستوى التجربة وما تتطلبه من فترة زمنية طويلة، يخرج النص من إطار الومضة القصصية إلى حدود القصة القصيرة جدا، ولا يهم التزامه هنا بالمدى العددي أو الكمي الذي تتراوح ما بينه كلمات الومضة القصصية.

وبالنسبة لشخصيات النص، هناك شخصية وحيدة ظاهرة في الصورة، وهي الشخصية التي يستخدم الراوي

ضمير الغائب المفرد المذكر للإشارة إليها. وتفترض بنية النص وجود شخصيات أخرى، وهي شخصيات سياسية في الأساس تمسك بمقاليد الأمور في هذا الوطن، وهي التي تسببت في موت الشخصية جوعا.

وبالنسبة لأسلوب السرد والمنظور السردي، هذا النص مروي بضمير الغائب من خلال راو غير مشارك في الحدث، ويعتمد النص في الأساس على المنظور الداخلي المسلَّط على الشخصية، إذ ينقل لنا الراوي ما يدور داخل هذه الشخصية من عمليات عقلية ووجدانية ونفسية: الاجتزاء، التوصيف، العشق، كبح الأمنيات. ويأتي المنظور الخارجي في نهاية النص لينقل لنا موت هذه الشخصية بسبب الجوع.

ونستنتج من ذلك، أن الحجم ليس معيارا للتمييز بين الومضة القصصية والقصة القصيرة جدا. فهما يشتركان في عناصر السرد المتعارف عليها من قلة عدد الشخصيات والاعتماد على السرد في نقل الحدث وتوظيف المنظور

السردي المناسب ووجود مكان وزمان للأحداث، سواء أكانا ظاهرين ومحددين في النص أم يوجدان بشكل ضمني: فالمكان هنا هو الوطن الذي تنتمي له الشخصية، والزمان هو الزمان الماضي السابق على عملية السرد وإن كان غير محدد، ولكننا يمكننا أن نستشف أنه طويل نسبيا نظرا للفترة الطويلة ما بين تحديد مفهوم معين للوطن والسعي لتحقيق هذا المفهوم والموت جوعا بسبب هذا التحقيق وهذا المفهوم.

فالمعيار الأساسي للتمييز ما بين الومضة القصصية والقصة القصيرة جدا أن الزمن في الومضة القصصية لا يستغرق سوى لحظة أو لحظات على الأكثر، في حين أن الزمن في القصة القصيرة جدا قد يمتد لأكثر من ذلك بكثير.

كما أن الحبكة القصصية تلعب دورا في تحديد ما إذا كان النص ومضة قصصية أم قصة قصيرة، وأقصد بالحبكة طريقة عرض الحدث كما تتجلى أمامنا في النص من بدايته على أول السطر حتى نهايته. فالزمن الطويل يمكن تقديمه في النص بطريقة تجعله حدثا قصيرا، نظرا لما سيقوم

الراوي بالتركيز عليه من خلال بنية النص. فلو قال الراوي هنا مثلا: "الرجل الذي مات جوعا اجتزأ حياتَهُ بتوصيفٍ دقيقٍ لخارطةِ الوطن، عشقَ ماءهُ... ترابَه... كَبَحَ أُمنيّاتَهُ" أو "الرجل الذي اجتزأ حياتَهُ بتوصيفٍ دقيقٍ لخارطةِ الوطن، عشقَ ماءهُ... ترابَه... وكَبَحَ أُمنيّاتَهُ مات جوعا"، سيختلف مفهوم المدى الزمني في النص: فالصياغتان تجعلان جملة الصلة والجملة الأساسية سببا ونتيجة، كما أن كل منهما ستركز على لحظة واحدة فقط، فالصياغة الأولى ستركز على سبب الموت جوعا، والصياغة الثانية ستركز على الموت جوعا في حد ذاته. ويمكننا أن نصيغ النص بطريقة ثالثة تجعله يظل في نطاق الومضة القصصية أيضا: "مات جوعا مع أنه اجتزأ حياتَهُ بتوصيفٍ دقيقٍ لخارطةِ الوطن، عشقَ ماءهُ... ترابَه... وكَبَحَ أُمنيّاتَهُ"، فالتركيز هنا أيضا سيكون على فعل الموت جوعا وتأتي الجمل التي بعد "مع أن" على سبيل الفلاش باك أو الرجوع للوراء في الزمن لإلقاء الضوء على سبب الموت جوعا، وطبعا ستودي "مع

أن" إلى لفت الانتباه للتناقض بين الموت جوعا وعشق الوطن.

وكل صياغة من الصياغات الثلاث المقترحة لها جمالياتها وبؤرة تركيزها، ولكنها تشترك كلها في تسليط الضوء على لحظة زمنية واحدة وتجعل اللحظات الأخرى تابعة لهذه اللحظة الزمنية، فالتركيب اللغوي هنا سيسلط الضوء على اللحظة أو يبرزها على مستوى التركيب والمعنى، وسيجعل باقي النص يتحرك في ظلها ويكون مسنودا أو تابعا لها تركيبيا ودلاليا.

باختصار، زمن الحدث هو المعيار الأساسي الذي يساعدنا في تمييز الومضة القصصية عن القصة القصيرة جدا أو العكس، فالزمن في الومضة القصصية كفلاش الكاميرا لا يستغرق سوى ثوان معدودة، أما في القصة القصيرة جدا فيمتد الزمن لأكبر من ذلك.

وتلعب الحبكة القصصية دورا في تحديد هذا الزمن، فمن خلال صياغة النص يمكننا أن نحدد هويته وانتماءه

النوعي التجنيسي. وهنا يلعب ما يمكنني أن أسميه الإتباع التركيبي أو الاشتمال التركيبي دورا كبيرا أو الدور الأساسي في تمييز الومضة القصصية. وأقصد به أن تكون اللحظة التي يريد الكاتب أن يسلط الضوء السردي عليها هي اللحظة الأساسية وتأتي اللحظات الأخرى تابعة لها على مستوى التركيب، أو تكون مشتَمَلَة في أعطاف أو ثنايا أو إطار هذه اللحظة الرئيسية.

obeikandl.com